

المحاضرة التاسعة:

3- على الثقافات المقارن (الأثنولوجيا Ethnology):

تعتبر الأثنولوجيا من أقرب العلوم إلى طبيعة الأنثروبولوجيا، بالنظر إلى التداخل الكبير فيما بينهما من حيث دراسة الشعوب وتصنيفها على أساس خصائصها، وميزاتها السلالية والثقافية والاقتصادية، بما في ذلك من عادات ومعتقدات، وأنواع المساكن والملابس، والمثل السائدة لدى هذه الشعوب. ولذلك، تعد الأثنولوجيا فرعاً من الأنثروبولوجيا، يختص بالبحث والدراسة عن نشأة السلالات البشرية، والأصول الأولى للإنسان، وترجع لفظة (أثنولوجيا) إلى الأصل اليوناني (أثنوس Ethnos) وتعني دراسة الشعوب. ولذلك تدرس الأثنولوجيا، خصائص الشعوب اللغوية والثقافية والسلالية. (اسماعيل ، 1973 ، ص 460)

وتعتمد الأثنولوجيا في تفسير توزيع الشعوب- في الماضي والحاضر - على انه نتيجة لتحرك هذه الشعوب واختلاطها، وانتشار الثقافات التي ترجع إلى كثرة الحوادث المعقدة، التي بدأت مع ظهور الإنسان منذ مليون (ملايين) من السنين فهي تبحث، مسألة المصادر التاريخية للشعوب، من أين أتت قبائل الهنود الحمر؟، وأي طريق سلكت؟ ومتى احتلت هذه الشعوب المناطق الموجودة فيها الآن، وكيف؟ ومن أية جهة تسللت إلى أمريكا؟ وكيف انتشرت فيها؟ ومتى ظهرت أجناس الهنود الحمر؟ وما هي الميزات اللغوية والملاح الثقافية التي نشرتها ثقافة الهنود الحمر، قبل احتكاكها بالثقافة الأوروبية؟ أو غير ذلك مما يفيد في الدراسات الوصفية المقارنة للمجتمعات الإنسانية وثقافتها (رشوان ، 1988 ، ص 81)

وتدخل في ذلك دراسية أصول الثقافات والمناطق الثقافية، وهجرة الثقافات وانتشارها والخصائص النوعية لكل منها، دراسة حياة المجتمعات في صورها المختلفة

أي انه العلم الذي يبحث في السلالات القديمة وأصولها وأنماط حياتها، كما يبحث في الحياة الحديثة في المجتمعات الحاضرة، وتأثرها بتلك الأصول القديمة.

ولذلك، تعرف الأنثولوجيا بأنها: دراسة الثقافة على أسس مقارنة وفي ضوء نظريات وقواعد ثابتة، بقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطورها، أوجه الاختلاف فيما بينها، وتحليل انتشارها تحليلا تاريخيا، (كلوكهون، 1964، ص31)

وتهتم النظرية الأنثولوجية بدراسة الثقافة، عن طريق القوانين المقارنة، ولا سيما مقارنة قوانين الشعوب البدائية، حيث يهتم علماء القانون المقارن بدراسة بعض العادات والنظم والقيم والتقاليد، مثل: النسب الأبوي أو الأمومي، سلطة الأب، الحياة الإباحية، الاختلاط الجنسي، وطرائق الزواج المختلفة.(الميدان، 1989، ص 103)

ويبحث علم الأنثولوجيا في طرائق حياة المجتمعات التي لا تزال موجودة في عصرنا الحاضر، أو المجتمعات التي يعود تاريخ انقراضها إلى عهد قريب، وتتوافر لدينا عنه سجلات تكاد تكون كاملة. فكل مجتمع طريقته الخاصة في الحياة، وهي التي يطلق عليها العلماء الأنثروبولوجيون مصطلح "الثقافة".

ويعد مفهوم الثقافة من أهم الأدوات التي يتعامل معها الباحث الأنثولوجي.

(لينتون، 1967، ص 25)

ومن ميزات الأنثولوجيا، أنها تعتمد عمليتي التحليل و المقارنة، فتكون عملية التحليل في دراسة ثقافة واحدة، بينما تكون عملية المقارنة في دراسة ثقافتين أو أكثر. وتدرس الأنثولوجيا الثقافات الحيّة (المعاصرة) والتي يمكن التعرف إليها بالعيش بين أهلها، كما تدرس الثقافات المنقرضة (البائدة) بواسطة مخلفاتها الأثرية المكتوبة

والوثائق المدونة. وتهتم إلى جانب ذلك، بدراسة ظاهرة التغيير الثقافي من خلال البحث في تاريخ الثقافات وتطورها. (وصفي 1977، ص 30)

وقد كان هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية، يلقي اهتماماً قليلاً قياساً للفروع الأنثروبولوجية الأخرى، حيث قام بعض علماء الانثروبولوجيا في القرن العشرين، بدراسة الطرائق التي تؤثر من خلالها المفاهيم الاجتماعية المحدودة في سلوك الأشخاص وأمزجتهم، ومعرفة الحياة الإنسانية الشعوب التي ما زالت تحيا حياة بسيطة، ولا سيما تلك الشعوب التي تعيش في أستراليا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا، وفي بعض المناطق في آسيا.

وكان علماء الأثنولوجيا، وإلى عهد قريب جداً، يقصرون أبحاثهم في الظواهر الاجتماعية والإنسانية للمجتمعات الثقافية. وكانوا يعتبرون الفرد كما لو انه مجرد ناقل للثقافة، أو حلقة من سلسلة من الوحدات المتسلسلة التي يمكن أن تستبدل الواحدة منها بأخرى. ولكن، وبعد دراسات عديدة، تبين لهؤلاء العلماء أن المعايير الشخصية، تختلف باختلاف الأفراد والمجتمعات والثقافات. (ناصر، 1985، ص 66)

فمنذ البدايات الأولى التطور الأبحاث الأثنولوجية، والعلماء يحاولون اكتشاف الأسباب التي تجعل مجتمعات معينة، تطور محاور اهتمام خاصة بها وتتقبل أو تنبذ تجديدات مختلفة من النوع الذي يبدو أنه لا ينطوي على أية عوامل نفعية، وكذلك الأسباب التي تجعل الثقافات المتنوعة تعكس - بصورة منتظمة - اتجاهات مختلفة في تطورها وساد الاعتقاد حيناً من الزمن أن هذه الظواهرات يمكن عزوها إلى وقائع تاريخية عارضة، غير أن هذه النظرية هي ضرب من الاقتراض الجدلي الذي لا يستند إلى أي برهان أو دليل (لينتون، 1967، ص 32)

ويتفق معظم العلماء على أن مصطلح (أثنوجرافيا) يطلق على الدراسة التي تعتمد إلى وصف ثقافة ما في مجتمع معين، بينما يطلق مصطلح (أثنولوجيا) على الدراسات التي تجمع بين الوصف والمقارنة. فالأثنولوجي يهدف من تلك المقارنات الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية، ولظاهرة التغيير الثقافي وآثار الاتصال بين الثقافات المختلفة، كما يهدف الأثنولوجي أيضاً إلى تصنيف الثقافات ضمن مجموعات أو أشكال، على أساس مقاييس (معايير) معينة (وصفي، 1971، ص 25)